القصص

هواجس

بقلم حبيب الزحلاوى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

أكثر ليالى الصيف فى مصر مقتطعة من فراديس النعيم لعشاق اللهو والاستمتاع يا لله !! كم ليلة قضيناها على شواطىء النيل نستمتع بانسياب أمواهه الهادئة ، نشاهد مثاوى الأشباح تحت ظلال النخيل ، نراقب أنوار المدينة ونجوم السماء تتناقص وتنطفىء وتتلاشى على بساط الفجر وإشعاع الشمس

يا لله ! كم ليلة سمعنا فيها أغانى أم كلثوم وصوتها العذب الحنون ! وكم أصغينا إلى نشيج محمد عبد الوهاب وأنغامه المسترخية المستلينة ، وكم لمسنا فيها تفاعل الاغماء والتماوت ، لقد شهدنا على المسارح تمثيل القردة المقلدين واسترعى انتباهنا ممثل هزلى بارع ، إحساسه فى وجهه ، وعقله فى نظرات عينيه ، وبراعة فنه فى إيمآته وسكونه ، هو ذا نجيب الريحانى المطبوع على الفن

كم ليلة جسنا فيها حلقات الأدب ، ومجالس العلماء ، و(بمكوكة) الظرفاء وصالات المتأدبات ، لقد كانت الرغبات هى كل شىء فى عرف صديقتى أنيسة تدفعها إلى معرفة كل شىء ، وكانت تقول : « متى انقطعت الرغبات انقطع حبل الحياة معها ، وتجزم بأن من يتعمل قتل رغبات نفسه كان كمن يحاول الانتحار » كانت تعرف الرغبات الجوالة فى صدور الساسة « بأنها تقدير لما تحتاج إليه النفس الانسانية الكبيرة » وتقول : « لا خير فى جهود تبذل إذا كان رجل السياسة يعجز عن إدراك رغبات مواطنيه وحاجاتهم » وقالت عن المصريين : « إنهم كشعب ، يعرف جيداً كيف يفرح ويحقد ، ولكنه لا يعرف أبداً كيف يغضب وينتقم » لقد قالت لى صديقتى عن مجالس النساء والرجال قولاً ظريفاً فيه مداعبة ومفاكهة ، ولذعات وسخرية قالت : « إنه قد يعسر عليها إيجاد رجل واحد خليق بأن يسمى رجلاً بين مائة ممن لقيتهم من الأدباء والعلماء والكتاب والسياسيين ، وإن المرأة المصرية ليست إلا أنثى » ، وكانت تضحك من الشبان المستكرشين والصبايا المترهلات وتقول : « إن الرياضة تعلم الشباب الاعتداد بالذات »

شيطان صديقتى شيطان ذكر ، نبت فى الشرق وتمرد فى أمريكا فصير صاحبته كعصير العنب المستقطر بالبيانسون فائدته فى قتله بالماء ، وهكذا متى عادت صديقتى إلى أمريكا سيتذوق الأمريكان خمرة معارفها ويستوعبون عمق وعيها وإدراكها وواسع اطلاعها ، وقد مزجت ثقافتها الأمريكية بروح شرقى خاصته الالهام والفيض

لقد عرفت نفسية صاحبتى تصغى إلى كل نأمة ، تستوعب الكلمة والغرض ، تلمح البادرة الخاطفة ، تدرك مرامى النكتة ، تقيد شوارد الفكرة وهمسات الفؤاد وسبحات الأحلام ، تسمع ولا تتكلم كغالب السوريين ، ولكنها متكلمة يطيب لها الحديث تحلل فيه ما سمعت وتنقد ما رأت ، على ضوء كأس من الوسكى « كنادیان » وسيجارة أمريكانية لا تنطفىء من ماركة « لكى سترايك »

علقت الوسكى وأدمنت التدخين ، فكانت تصدنى عن الأول لو حاولت شرب كأس قبل الطعام ، ولا تسمح به إلا بعيد منتصف الليل ، لأنه يعاون الجسد على الاستغراق فى النوم ، وتستكثر فى من التدخين ، لأنه يجلى البصيرة على رقصات الدخان وتلاعب تموجاته

شهران من شهور الصيف كانت لياليهما لنا زيادة استكشفنا بها أشياء كثيرة ، منها أغانى الرمال وأنغامها فى الصحراء متى داعبها النسيم أو عصف الريح ، جثوم أبى الهول عند أقدام الأهرام ، هدير النيل فى الشلال وعظمته فى القناطر الخيرية ، فى غابات النخيل المتكاثفة فى كثبان الرمل ، وقد رأينا أشياء كثيرة فى النهار من معالم مصر كقبور الفراعنة ومخلفاتهم الباقية على الدهر ، والجوامع والأديرة والمدافن وسواها مما لم يحفزنى حافز من قبل الى مشاهدته

شهران كانا لى رياضة نفسية عجيبة كنت أتمرن فى خلالها

على الاستنباط من لوحة ذكريات الطفولة ، صوراً بريئة أعرضها على مجهر خيالي وقد استغاق على المعرفة ، والبحث عن المعلوم والمجهول . يالله من اصطدام الطفولة البريئة بالرجولة المحنكة ، من قوة العقل تكبح جماح طفرة النفس ، من صعوبة سيادة الملكات الانسانية المكتسبة على نزوات الطبيعة الوحشية ، من همهمات ملائكة الضمير على وسوسة الشيطان الرجيم . . . . . ! !

... ...

* * *

وقفت قبالة عربة القطار المقل لصديقتي أنيسة عبر حدود مصر وقفة سهوم وفتور ، بل وقفة الكلف الولوع المكتوى الفؤاد ، أخاف الفراق وأفرق منه لأني سأصبح مضطرب الخيال ، فريسة الوحشة ، يتيم الروح . ولما هم القطار متثاقلاً في حركته ، كان الألم المكبوت يوشك على الانفجار ، ولكنه تحول دموعاً انهمرت سخينة على يد صديقتي وقد قبلتها لأول وهلة

رفعت ذراعي ولوحت بها في الفضاء ، غير أن الصور اختلطت على وغاب القطار

من لي بمن يعبر عما كان يتجاوب في صدرها من حنان وحب ؟ من لي بمن يعبر عن نظراتها هل كان ينشاها طيف حزين ، أو هي فاترة ساهمة ؟ من لي بأفاك يضحك مني فأصدق تقوّله إنها استسلمت للأسى والمرارة كما استسلمت أنا ، وأن أحلام سعادتها قد انتعشت من جديد كما انتعشت أحلام سعادتي بأمل ورجاء ؟ !

لا . . . . لم يعد بي حاجة الى متقوّل يضحك مني إرضاء لضعفي الطارىء المستحب ، لم تعد لي بالاستهواء الذاتي فائدة لأني قدرت ، بعد انقضاء أيام من الألم المضني ، أن البرزخ الفاصل بيننا متعذر العبور ، ولكن شيئاً جديداً أعاد إليّ رجائي ، أحيا فيّ أملي ، لقد أخذت كتب صديقتي تصلني تباعاً كل أسبوع ، في كل شهر ، فيها التوضيح والتبسيط لكل خلجات عواطف المرأة التي تعرف كيف تعبر عنها تعبيراً صحيحاً في حالة الانغماس فيها أو في حالة القدرة على وصفها بالكتابة ، أما الفصول القيمة التي كانت تنشرها في المجلة الأمريكية ففيها من التفصيل الدقيق لذاتية الأديب الفنان الذي يتخذ من المشاهدات الواقعية والذاتية ومن الخلجات العاطفية أداة للخلق والابتداع

صارت خطاباتها على مر السنين مصدر وحي لي فياض بخصائص الحياة وعناصر الرغبة فيها ، كنت أستلهم سطورها أدق المعاني وأبرع التصورات ، وأشعر بسحرها ينشاني فتنشرق نفسي لأنه كان كنغمات بعيدة عميقة لصوت حالم طروب حملها الأثير من جوف وادي الظلام ! ! إلا أنه حدث ما لم أكن أتوقعه ، حدث أن جاءني كتاب منها تقول فيه أن أكف عن مراسلتها كما أنها ستنقطع عنها ريثما تعالج من مرض ألم بها في إحدى المصحات وتدعوني الى الصلاة لأجلها ، أو أبكيها بدمعة واحدة إذا استنزف الداء حيويتها ! !

عام طويل أجوف كأنه دهر من العدم حاق بي من كل جانب كنت فيه كالمشلول خولط في عقله ، لاهو من الأحياء فينفع ولا هو بميت فيدفن . أما الآن فحمداً لله ، فقد كتبت لي صديقتي تقول إنها استعادت عافيتها وبرئت من علتها فتخلصت أنا من التأرجح بين العدم والوجود ، وشفيت من تقلبات النفس وانفعالاتها العكسية . . .

وانتصب واقفاً وقال : لقد دعوتكم الليلة يا رفاق صباي وعشراء كهولتي لأفضي اليكم بما كان بي من هواجس ، وأعترف لكم اعتراف المثقل بالفرح ، فهيا نشرب كأساً من الشمبانيا تبرد اليد المتقدة المسكة بقلبي منذ عام ، وقد أفلت من مقابضها اليوم

لم يتقدم واحد للشراب بل قال قائل : هل لمثلك وقد جاوزت الخمسين من عمرك أن يستغرقك الحب ويرديك في مهاويه ؟ وقال آخر : ليس ما كان بك هو الحب ، انما هو أنانية اشعلت نارها امرأة مكبوتة حساسة عاشت على الحنين الى الماضي في بيئة غريبة عنها . وقال الثالث : ان ما كان بك يا عزيزي هو حرمان أخرس حلّت الفرحة المفاجئة عقلة لسانه فصرخ صرخة الوداع ! !

وقال الرابع : لقد أنطقتك الخمر بما كان يجب السكوت عليه ، وتبخرت اعترافاتك هذه نشوة سوف لاتلقاها بعد الآن . وعاد الأول فقال : لقد كان الخيال البعيد يشمرك بالذكرى المفقودة فكنت تتمدد إثبات وجودها بكأس كنت تشربها في وقت معين ، وبسيجارة كانت تصور لك مرائي الماضي الضائع ، وتخيلات تلك الليالي الهاربة من أجواء أحلام الشعراء ، أما الليلة فقد بددت كل شيء ، بددت كنز وجدانك ، لأن رجل الحياة هو الذي يحب ويتعذب ويموت فلا يشتكي ولا يبكي ، وقال آخر وهو يلوح بيديه ويلوي عنقه وشفته : ما هو الحب ؟ أليس هو . . . أليس هو ؟ ؟ ؟

لا . لا يا أصدقائي ، ليس الأمر كما تتوهمون ، ليس الحب